رهان الخمسة دنانير

د. نافع عقراوي

نخس صاحبه الذي كان يجلس بجانبه على المصطبة في فناء الكلية بقلق مشوب بالضحك والأسى قائلا:

– أنظر... أنظر... شاهد أمامك..!

رد عليه صاحبه الذي كان منهمكا بقراءة كتاب طبي سميك ضجرا:–

– ماذا أنظر...؟ دعني أكمل موضوعي..!

– أقول لك.. ان صاحبنا ربح الخمسة دنانير!

– ماذا...؟ ماذا..؟ أية خمسة دنانير تقصد..؟

تدخل الثالث والرابع اللذان كانا بجوارهما على نفس المصطبة وقالا بصوت واحد:

– أية خمسة دنانير ياأبله...؟

أجابهم الأول وهو يضرب على فخذيه وكأن هموم الدنيا ساقطة على رأسه.. أو انه ربان سفينة كتب عليه الغرق، بصوت ملؤه الحسرة والحزن الممزوج بالضحك الباهت قال:–

– يستطيع هذا ان ينجز مالم نستطع انجازه طول هذه المدة... شاهدوه وهو ينزل معها درجات السلم... انظروا جيدا لتروا عجيبة اخرى تضاف لعجائب الدنيا السبعة... هذا ياإخوتي حية تحت التبن... كنا نتصور أنه على وضعه المزري لايقوى على شيء..

كانت عيون الاصدقاء الاربعة مسمرة بدرج السلم.. قلوبهم تنبض بسرعة.. كلهم مندهشون أمام ذلك المنظر...

– هذا... نعم هذا وليس غيره.. يربح الرهان..؟

– نحن أحسن منه حالا وقواما وهنداما وملأ للجيوب.. لم نقدر على ماقام به الآن.. كيف يجوز...؟!

– خمسة دنانير... أتدرون كم يستطيع هذا الأبله أن يعتاش بها..؟

– أنا أصرف الخمسة دنانير بدقيقة واحدة بعض الأحيان..!

– هو يصرفها في شهرين...!

تدخل الذي كان على الطرف الأيسر من المصطبة حيث كان يراقب الحديث قائلا:–

– لماذا تقللون قدر الناس..؟ لماذا تتحرجون من قول الحقيقة..؟ لماذا تعتبرون أن ملأ الجيوب وحسن الهندام هو كل شيء.؟ نعم لماذا تتصورون أن الوضع المادي هو السبب في وصول الانسان الى كل مايبتغيه..؟

أجابه الاول:

– وماذا تراه السبب في النجاح.. أيها الفيلسوف.. ان المال ويسر الحال هو

الطريق الى حل كل العقد..!

– لا. ياأخي.. ان كان هذا مملوءا بالمخ... أشار الى رأسه. وأستطاع الانسان الاستفادة من محتوياته لاستطاع أن ينجز كل شيء... لابل ان يأتي بالمعجزات..

– وهل هذه معجزات ياأخ..؟

– نعم معجزة.. أقولها بثقة.. نعم إنها معجزة... كم حاولت أنت... وحاولنا نحن كلنا.. وحاول اخرون أيسر منا حالا أن يصلوا الى ماوصل اليه صديقنا الان.. لم يستطع أحد أن ينجز ذلك... وأخيرا يستطيع هو ذلك.. الا يكون معجزة..؟ نعم إنها معجزة حقا..؟

كان يرتدي الملابس العتيقة... قديمة كانت بدلته التي دخل بها الى الكلية.. لديه سترة أخرى وبنطرونان عدا البدلة القديمة... كان يصلح بنفسه كل فتق أو شق يستجد في ملابسه.. ليس لديه أحد في المدينة الكبيرة يستطيع ان يستمد منه العون.. هناك اقرباء لامه وأبيه يعيشون في المدينة الكبيرة، ولكنه لم يكن يريد ان يظهر أمامهم بمظهر الضعيف الذي لايستطيع انجاز مهمته في انهاء دراسة الكلية، لقد قالوا بحقه الكثير عندما دخل كلية الطب: قالوا أنه لايستطيع اكمال الدراسة وقالوا: كلية الطب صعبة وتحتاج الى مادة... وقالوا: من اين سيحصل على المال في سبيل

اكمال الدراسة.. وقالوا اشياء يستحي أن يذكرها... لذلك لم يكن يمر حتى في المناطق التي يعيش فيها اقرباؤه.. نعم لم يكن يملك مايسد به رمقه.. ولكنه لم يظهر ذلك لأحد... رغم قدم ملابسه ولكنها كانت نظيفة دوما... لم تكن تنبعث منه الروائح كما كان بعض الزملاء يتضجرون من البعض الذين لايتورعون عن المجيء للكلية والروائح الكريهة منبعثة من ارجلهم أو اجسامهم... لاأحد يجلس بجانبهم في مدرجات الدراسة أو حتى في المختبرات المملوءة بالروائح المختلفة كصالات التشريح أو في مختبرات الكيمياء أو

صالات العمليات.. لم يكن لديه مكواة ولكنه كان يحافظ على هيئة الكوي في ملابسه وخاصة البنطرونات بوضعها تحت المنام باعتناء.. يغسل ملابسه وجواربه باعتناء.. حتى لاتتمزق ويقع في مأزق... رغم كل ماكان يقاسيه من ضيق العيش وسوء الاحوال فانه كان يملأ ذلك النقص بالانكباب المستمر على الدراسة والتميز فيها... كان في موضع الحسد من أقرانه... كل أمتيازاته ونجاحه وبروزه في الدراسة العلمية والنظرية يتحملها أصدقاؤه وزملاؤه في الدراسة، ولكن في أن يكسب الرهان في ميدان استمالة قلوب الفتيات.. أمر لايحتمل.. كل زملائه.. أو حتى كل الناس يتصورون أنه لايمكن أن ينجح في هذا الميدان كيف ينجح في هذا المضمار من يشكو معدته

من الجوع الما... أزعج الأمر أصدقاءه وأعداءه... ولكن لم يكن هناك من يعاديه... ومن يعاديه..؟ ولماذا يعادونه..؟ بعد هذه الحادثة.. يجوز أن يعاديه بعضهم.. كيف..؟ الا يعرف الكل أن الحب شيء قدسي يحرك القلب... القلب كما يقول الكردي كالذبابة تحط على الجميل والقبيح... على الحلو

والمر... على النظيف والوسخ... ولكن هل يجوز أن يكون هو قبيحا... مرا.. أو وسخا حطت هذه المرة الذبابة عليه...؟ مهما كانت المسألة فإنه قد أنجز مالم ينجزه أصحابه وزملاؤه.. استطاع أن يقوم بعمل طالما حلم به الاخرون.. ولكن عمله كان في اليقظة وليس حلما..

لم تكن مواكبة لسنواتهم الاربع التي مضت.. بل تأخرت في السنة الخامسة.. ونجح اعضاء الجوقة... اصبحوا في نفس السنة الدراسية... كالاميرة كانت... تسوق سيارة حمراء في ذلك الوقت... وسط الستينات... كان يسمع زملاءه يتحدثون عن موديل تلك السيارة...

سيارة الشباب... أولاد الذين انعم الله عليهم في الدنيا... وفي الاخرة سيكون لهم امتيازات أكثر... أميرة كانت في ملبسها ومشيتها وتصرفاتها أميرة في كلامها وطريقة تلفظها للكلمات.. نهود تتحرك وكأنهما ثائران في قيود ثقيلة يودان فكها من اجل الصعود لحبل المشنقة لنيل الخلود... زنود بضة

بيضاء... شفاه كالحجر تتقطر دما.. أميرة.. أميرة.. أميرة... في كل شيء.. تسلم على هذا بكبرياء تحرك لذاك رأسها... تهز يدها بخيلاء لآخرين... كلامها معسول ولكن موزون حتى مع الأساتذة.. ابتسامتها للجميع ولكن من برج عال كل الشباب والطلبة يحلمون بصداقتها وحبها.. ولكنها لم تجلس

مع واحد لوحدها.. كانت تجلس مع زمر الطلبة مطلقة ضحكتها وكأنها أنغام موسيقى لم يجرأ أحد على الادعاء بحبها أو حتى احتكار صداقتها... حتى البنات لم تكن صديقاتها... والسبب يعود للغيرة والحسد.. كم من طالبة كانت تنعت الأميرة بالغرور... لاتحسب حسابا لاحد وكأنها خلقت لوحدها... نسيج وحدها مالا وجمالا...

لاينقصها شيء ولكنها رسبت في السنة الخامسة..

وقد يكون السبب غرورها وتصرفاتها ايضا... لحقتها الجوقة. هو واصدقاؤه.. كانوا خمسة موزعين على رقعة العراق من الشمال الى الجنوب... كل واحد منهم من محافظة عراقية.. جمعتهم أفياء مدينة الحدباء وكليتها الطبية للدراسة، كان الاربعة الاخرون احسن منه حالا ولكنه في المجال الدراسي كان جيدا.. ولم يكن زملاؤه غير جيدين أيضا.. كانت صداقتهم شيئا غريبا... لم تكن حتى افكارهم تلتقي عند نقطة واحدة فقط.. كل ما يجمعهم هي الغربة التي يعيشونها في الموصل... ترك الخمسة عوائلهم في مدن اخرى قاصدين الدراسة في كلية الطب في مدينة الحدباء.

منذ بداية السنة الدراسية كانت الاميرة حديث كل طلبة الصف الخامس... كانت الطالبات كثيرات.. بل أن عددهن يقارب عدد الطلبة الذكور ان لم يكن اكثر... ولكنها كانت زينة السنة الدراسية.

كان واصحابه الخمسة يشاهدون تقرب الطلبة منها وتوددهم لها... ولكنهم كانوا يعودون فاشلين أمام خيلاء وغرور الاميرة... حاول عدد من جوقتهم الخمسة ولكنهم فشلوا... كان الزملاء في الكلية يسمونهم بالجوقة.. كانوا دوما معا.. يدرسون ويأكلون وينامون في قسم داخلي واحد... لايفترقون... كانوا يعرفون اسرار بعضهم.... عرف اعضاء الجوقة أن الوصول الى قلب الاميرة مستحيل... من يحاول.. لابد ان يفشل... اصبحت الاميرة قلعة حصينة لايصل الى ابراجها احد... لابل كانت مدينة مسحورة محروسة بالجان والتنين والثعابين... لايرى المقترب منها سوى الصدود... ومن ستقبل نفسيته أن يصبح موضع هزء وسخرية الزملاء...؟ كان اجتماع الجوقة في موعد الشاي بعد الدراسة المضنية... تباحث الخمسة حول من يستطيع الجلوس مع الاميرة لوحدها في نادي الكلية سيكون ذا حظ عظيم..!

قال هو:- هل صعب انجاز ذلك الأمر ياصدقائي..؟

أجاب ماجد: أراها أكثر صعوبة من الصعود الى قمة ايفريست..!

رد باسم: يارفاقي اتركوها.. انها مغرورة... أنا شخصيا لااريد سماع اسمها..!

انبرى نوئيل قائلا: انه لم ينجح في محاولته مع الأميرة لذلك لايريد سماع اسمها.. اليس كذلك ياباسم..؟

أما عبد الحسين فقد دخل الحديث مازحا: في رأيي ان الحديث عن شجاعة الاسد وجمال يوسف وفروسية عنترة وشاعرية المتنبي وكل شيء غير اعتيادي.. كلام له معنى.. لابل يبعث الفرح والسرور في القلب..

قال هو: هل تعتقدون بأنني لاأستطيع إنجاز اي شيء سوى الدراسة

وكتابة الشعر لأسود الصحائف وأفكر فيما يسد رمقي..؟

رد ماجد: لا ياأخي... إنك لاتظهر مواهبك... نحن ندردش في كل الامور ولكنك قليل الكلام... نحن نشكو ولكنك لاتشكو من شيء مع علمنا بحالك وكيف انك تعيش ظروفا صعبة لو اعترضت سبيل احدنا لما استطعنا الاستمرار والتواصل مثلك.

قال: دعونا من هذه الأمور ولنتحدث عن الأميرة التي أخذت ألبابكم..!

قال نوئيل: بالله عليك.. ألم تتأثر بجمالها..؟

قاطعه عبد الحسين: ألم تزرك ليلة في المنام..؟

قد تكون الحوادث أو الحلوات اللاتي نراهن في طريقنا أو أماكن عملنا يزرننا ليلا.. وهذا الأمر يعود للمستوى اللاشعوري في ذاكرة الانسان حيث يخلد للنوم.. فتبدأ كل الأمور التي دفنت في تلافيف المخ وفي هو اللاشعور بالخروج واللجوء الى مايهواه الانسان في كوامن شخصيته... ولكن لو خلد الانسان للنوم جائعا... فكيف تخرج الطموحات الكامنة والاهواء المضمومة في قرار النفس للظهور..؟ وحتى في الخيال الحالم حين الرقاد..؟ كان أصدقاؤه يعرفون عنه هذه الحقيقة... فلايتصورون أن يكون له أي نوع من الطموحات أو الأهواء التي يفكر فيها أصحابه... وقد كانوا يتألمون بصدق لحاله... كانوا يدارونه... لاينعتونه بشيء، الى أن كان ذلك اليوم. يوم التحدي... شعر بأنه يجب ولو لمرة واحدة أن يظهر علو وغطرسة الفنان المبدع.. أن يظهر أن المبدع الذي يخلق لابد أن يكون له مكانة خاصة.. يجب أن يبين أن الادب والفن قد ينجزان شيئا لاتستطيع القوى الزائلة

انجازه ابدا...

قال هو لاصحابة ايها الاخوة لو استطعت الجلوس مع الأميرة خلال اسبوع واحد... بماذا ستكافئونني..؟!

قال ماجد سنتراهن..!

قال هو: كيف..؟

قال باسم: لو استطعت منذ اليوم وحتى بعد شهر.. اي بعد ثلاثين يوما بالتمام والكمال أن تجلس معها في النادي بشرط أن تكونا لوحدكما وأن تمشيا في أروقة الكلية.... فاننا سنعطيك... خمسة دنانير..!!

خمسة دنانير.. مبلغ لايستهان به... في منتصف الستينات مبلغ كبير لمن مثله.. القيمة اكثر مما يتصور... قد يكون الرهان ضربا من ضروب القمار... ولكن المبلغ حري بأن يتعب نفسه في سبيله، هكذا فكر مع نفسه ووافق على الرهان ولكنه قال:

- حسنا ولكن لو لم انجح في مسعاي ماذا سيكون المقابل:

قال عبد الحسين: يجب أن تعطينا خمسة دنانير..!

وقف حائرا لايقوى الكلام.. استطرد نوئيل قائلا:-

- لا.. لا.. ليشتري لكل واحد منا قنينة بيبسي وكيكة واحدة كل ذلك لايكلف أكثر من ربع دينار...

ان الربع دينار الذي سيذهب لو لم ينجح لاسامح الله سيسبب عجزا في ميزانية دولته ولكنه وافق على عرض نوئيل. هكذا بدأ الاتفاق.. بدأ يفكر... متى كان سهلا لذلك الحد حتى يوافق على ذلك العرض... أين هو من النساء... اخر شيء كان يفكر به هو مخالطة النساء والفتيات اللاتي كان يعرف انهن لاينظرن الى معدمين مثله... ولكنه يعلم أنه يملك موهبة لاتتوفر في غيره وقد يستطيع انجاز مايريد..!

كان يكتب الشعر وينشره في الجرائد والمجلات... لا للتكسب... لم يكن يعلم في حينه بأن لنشر قصائده مكافأة... لم يخطر بباله يوما أنه سيتكسب من كتابة شعر أو نشر مقالة أو قصة... كانت تلك الموهبة هواية يصب بها على الورق كل دموعه والامه واحزانه لم يكن يرضى ابدا ببيع أدمعه وأحزانه التي أذابت معها بعضا من سويداء قلبه...!

كيف سيتقرب منها...؟

أسم الاميرة يولد في جسمه رعشة..!!

اسمها يبدأ بنفس حرف اسمه... كانا يجلسان عادة قريبين من بعضهما وخاصة في المختبرات أو بعض المدرجات الدراسية، كان التفكير عنده يتناول وجبة دسمة وفي مطعم فاخر أولى واسهل من التفكير وحتى في الخيال بالاميرة... لذا وقع في دوامة لم يجد الفكاك منها... كانت ورطة تلك المسألة وقد جعل هو نفسه وبيده في خضمها... لم يكن من مستواها... ظل يتصور أنه كان مخطئا في قبوله للرهان... ولكن كما يقول المثل.. وقع الفأس في الرأس ويجب عليه أن يجد مخرجا في أنجار مايراه صعبا... ظل يومين متتاليين في دوامة التفكير كاد أن يتقاعس عن دراسته...خلال تلك الليلتين راها مرات عديدة في المنام وبشتى الصور... عراك وخصام وحب وهيام... مرات في صدود ومرات في لقاء واحتضان... شغلت المسألة حيزا كبيرا من فكره وتفكيره... أيصارحها...؟! هل يكتب لها...؟ صعبة الطريقتان.. وأخيرا كانت الثالثة... وهي القصيدة... الابداع... الشعر... كانت أهون الطرق...

وضع القصيدة في دفترها عند اخر محاضرة... تأخر في اليوم الثاني عن المحاضرة الأولى... دخل قاعة الدرس من الباب الخلفي دون أن يحدث ضجيجا... جلس في المقاعد الاخيرة... وبدأ بالانتباه للمحاضرة وتدوينها في دفتره... موضوع في الطب النفسي... القلق... ذلك المرض العصري الذي لايدع أحدا لايكابده.. كان قلقا يتابع درس القلق... اصبح كله اذنا صاغية للموضوع.. مع انه كان في كوامنه يفكر بما قديتولد من رد الفعل لتصرفه عند الاميرة... كانت الاميرة في تلك المحاضرة قد جلست في المقاعد الامامية تتابع المحاضرة بنهم.. كان جمالها واناقتها قد اضفت على النهار الربيعي لذلك اليوم رونقا وبهاء... هل هي بنفس المنظر امام عيون الزملاء كلهم ام انها كذلك عنده فقط..؟ هل ستتفجر الاميرة كالبركان لعمله الشائن...؟ هل ستوجه اليه تهمة..؟ هل ستفضحه امام الزملاء..؟ كل رفاقه وزملائه في الكلية يعرفون أنه يعيش في وضع مادي ومعنوي خاص... لايستطيع لذلك أن الامتزاج في الجو السائد بالكلية... لم يسمع احد عنه اية شائنه.. هي الاميرة.. وهو الفقير.. هل يجوز ان يجتمعا....؟ ولم لا..؟ قد تحصل المعجزة وتحب الاميرة ابن الفقير كما يحصل في اساطير الاولين وحكايات افلام كارتون وقصص الاطفال....!.

انتهت المحاضرة.. خرج الا ستاذ.. كثر اللغو في القاعة.. راقب الأميرة من اخر القاعة.. أراد أن يعرف رد فعلها.. راها تتلفت يمينا وشمالا.. رغب أن يخيء نفسه تحت المنضدة.. كم كان يهوى أن تنمو له جناحان كي يطير بهما ولا يقابل الأمير.

كان منشغلا بقراءة صفحة من دفتره عندما راها تتقدم نحوه.. كاد قلبه أن يتوقف عن النبض.. شغل نفسه بتنظيم دفاتره وكتبه مصورا لمن يراقبه أنه

ينجز عملا ضروريا ولايدري عما حوله شيئا..! ازدادت ضربات قلبه.. ضاق تنفسه.. كان ينظر للأميرة من خلال زاوية عينه مراقبا مجريات الأمور.. اقتربت الاميرة اكثر.. أصبحت على مقربة منه.. لم يدر لها بالا.. وقفت وكأنها باز يود الهجوم على فريسة صغيرة وقالت:

– أنت.. أنت تكتب لي شعرا..؟!

كاد أن يختنق بشهيقه.. أراد قلبه أن ينطلق هاربا من قفصه الصدري.. اعتراه القلق المفاجيء وسرت في كيانه قشعريرة تلعثم قليلا ولكنه تماسك

أخيرا وقال: بتعالٍ:–

– ماذا..؟ لم أسمع ماقلت..؟

قالت الاميرة بكبرياء رافعة رأسها بشموخ، ناظرة اليه من الزاوية البعيدة لعينها اليسرى:

– أنت.. أنت تكتب لي شعرا...؟!

قاطعها بتماسك:

– أنا.. أنا أكتب لك شعرا..؟.. لماذا..؟!

– بلى.. بلى.. لقد كتبت لي شعرا..!

– أنا لاأكتب شعرا لك أتدرين ماهو مستوى شعري..؟أن مستواه كما يعلم الجميع أعلى من أن ينزل الى مستواك.!! قال هذه الكلمات بتماسك وكان داخله يهتز من الخوف والقلق الذي انتشر في كل كوامنه.. أدار وجهه عنها وأشغل نفسه بكتبه تاركا أذنيه سامعتين ماسيكون رد فعلها على كلامه..

– نعم.. نعم.. لقد كتبت لي شعرا، والقصيدة عندي.. لقد وضعتها البارحة في دفتري وسأذهب للعميد شاكية من تصرفك المشين..!

وقف وقلبه يهتز اهلعا وخوفا ولكنه استطرد بتحكم..

– سأذهب أنا للعميد شاكيا سرقتك لقصيدتي منزلة مستواه الى مستواك الضحل.. لاتتصوري أبدا أنني أكتب لك شعرا... كل الزملاء يعرفون تصرفاتي... ان شعري لايضام ولاينزل مستواه الى الحضيض أيتها الانسة..! ثم وجه كلامه لزملائه الطلبة بصوت مرتفع.

– أيها الزملاء... هل عرفتم مني تصرفا مشينا... هل كتبت.. قالت الأميرة مقاطعة كلامه:

– أسكت... لاتصرخ... لنذهب لخارج القاعة ونتفاهم..! ازدادت ضربات قلبه هذه المرة فرحا بعد أن كانت ضرباته تزداد قلقا وخوفا.. لقد أصابت رميته هذه المرة.. قال لها:–

– لنذهب الى اي مكان تريدينه.

خرجا معا من القاعة الى ممر الكلية وهما صامتان بعد ذلك قالت الأميرة:

– هل أنني على هذا الحد من الاستهانة لتكتب لي مثل هذا الشعر.؟ تصلب في موقفه قائلا: أؤكد أنني لا ولن أكتب لك الشعر..!

قالت مبتسمة وبهدوء:

– قل لي... هل أنني سيئة الى هذا الحد لتكتب لي هذا الشعر الظالم...؟ تنازل قليلا عن موقفه المتشدد عندما لاحظ ان الأميرة تهاونت في موقفها وقال:

– وإن كتبت لك شعرا.. هل ستسقط السماء على الأرض كسفا أو تتفجر البراكين وتتوالى الزلازل...؟ ماذا سيحدث لو كتبت الشعر لك؟!

قالت مترددة: لاأتصور أنني سيئة الى هذا الحد..!

قال: لاأقول انك سيئة... ولكنك مغرورة..!

– إن قصيدتك اسمها.. «الى مغرورة»..

– نعم انت المغرورة... من انت حتى تشمخي الى هذا الحد...؟ الجمال أروع لو كان متواضعا... الحسن جذاب اذا كان في مستوى الناس.

– انت تدري لو نزل الانسان الى مستوى الناس لايحسبون ذلك تواضعا وبعدا عن الغرور.. لابل يفسرونها تفسيرات قذرة..!

– أنا معك ولكن..!

قاطعته:– هل نكمل حديثنا في ممرات الكلية... ألا تشتهي شايا نتناوله في النادي..!

كانا يمشيان في ممر الكلية المحاذي لقاعة المحاضرات.. انحرفا نحو الدرائج المؤدية الى الحديقة... طار فرحا ولكنه تمالك نفسه، كان يريد ذلك... يرغب أن تنجز المهمة أكثر منها... قال متعاليا:–

– ولماذا لانكمل حديثنا هنا..؟!

– لنذهب للنادي.. سأشربك شايا على حسابي... ليكن الشاي ثمنا لتلك القصيدة الظالمة..!

– انني لم اظلمك ولكنني قلت الحقيقة..!

مشت الى الامام.. تبعها هو.. مشيا معا... رآهما الاصدقاء الاربعة... ربح الخمسة دنانير... كان الرهان الاول... والثمن الاول لقصيدة ظالمة..